الحياة الفكرية في الولايات العربية العثمانية
صحراوي عبد القادر، المجلد الحادي عشر، العدد 1،
مارس 2020 ص ص 302- 314

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

الحياة الفكرية في الولايات العربية العثمانية ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر: المدارس التعليمية أنموذجا.

Intellectual life in the Ottoman Arab states between the 16th and 18th CE: educational institutions as an example.

أ.د. عبد القادر صحراوي

جامعة سيدي بلعباس، الجزائر

sahraoui195922@yahoo.com

تاريخ الإيداع: 2020/03/02 تاريخ القبول: 2020/03/30 تاريخ النشر: 2020/03/31

الملخص:

يعتقد الكثير من الباحثين والمؤرخين أن الحياة الفكرية في الولايات العربية خلال العهد العثماني كانت جامدة، ويركزون على القرن التاسع عشر وبداية العشرين المرتبطين بما يعرف بالنهضة العربية والثورة ضد الأتراك العثمانيين. غير أن البحوث التاريخية التي ظهرت في الفترات الأخيرة، والمؤتمرات العلمية التي عقدت في المشرق والمغرب العربيين تناقض ذلك. فقد أبرزت أن الفترة التاريخية الممتدة ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر شهدت نشاطا فكريا واضحا شمل بناء المؤسسات التعليمية، ومناهج التعليم، والعلوم المدرسة، والطباعة وغيرها من النشاطات الفكرية والعلمية. ولا ريب أن الحياة الفكرية في هذه البلاد مرتبطة بالأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية لكل ولاية، والتي لم تشكل عائقا أمام النشاط الفكري والتعليمي، باعتبار أن إقامة المؤسسات التعليمية والاهتمام بها ، يمثل القاعدة الأساسية للحياة العلمية والفكرية

الكلمات الدالة:

الحياة الفكرية – الولايات العربية – المشرق العربي – المغرب العربي – المؤسسات التعليمية – استانبول – العراق – الشام– الحجاز واليمن – مصر – طرابلس الغرب - تونس – الجزائر.

.Abstract:

Many researchers and historians believe that the intellectual life in the Arab states during the Ottoman era was rigid, and focus on the nineteenth and early twentieth years associated with what is known as the Arab Renaissance and the revolt against the Ottoman Turks. However, historical research that appeared in recent periods,

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

and scientific conferences held in the Levant and Maghreb contradict this. It highlighted that the historical period between the sixteenth and eighteenth centuries witnessed a clear intellectual activity that included building educational institutions, curricula for education, school science, printing and other intellectual and scientific activities. There is no doubt that the intellectual life in these countries is linked to the political, economic and social conditions of each state, which did not constitute an impediment to intellectual and educational activity, given that the establishment of educational institutions and caring for them is the basic basis for scientific and intellectual life.

Key Words:
Intellectual life - Arab states - the Levant - the Arab Maghreb - educational institutions - Istanbul - Iraq – the Levant -Hijaz and Yemen - Egypt - West Tripoli - Tunisia - Algeria.

يعتقد الكثير من الباحثين والمؤرخين أن الحياة الفكرية في الولايات العربية خلال العهد العثماني كانت جامدة، ويركزون على القرن التاسع عشر وبداية العشرين المرتبطين بما يعرف بالنهضة العربية والثورة ضد الأتراك العثمانيين. غير أن البحوث التاريخية التي ظهرت في الفترات الأخيرة، والمؤتمرات العلمية التي عقدت في المشرق والمغرب العربيين تناقض ذلك. فقد أبرزت أن الفترة التاريخية الممتدة ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر شهدت نشاطا فكريا واضحا شمل بناء المؤسسات التعليمية، ومناهج التعليم، والعلوم المدرسة، والطباعة وغيرها من النشاطات الفكرية والعلمية. وكانت الدولة العثمانية خلال هذه الفترة هي الدولة القوية الممتدة من البلقان إلى المناطق العربية في المشرق والمغرب ، اللهم إلا إذا استثنينا اليمن والمغرب الأقصى. ولا ريب أن الحياة الفكرية في هذه البلاد مرتبطة بالأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية لكل ولاية، والتي لم تشكل عائقا أمام النشاط الفكري والتعليمي، باعتبار أن إقامة المؤسسات التعليمية والاهتمام بها ، يمثل القاعدة الأساسية للحياة العلمية والفكرية.

1-النشاط التعليمي في الولايات العربية وإستانبول :

يعتبر الكتاب القاعدة الرئيسة للتعليم في الولايات العربية ومركز الخلافة خلال العهد العثماني ، ويمثل مكانا لتعليم القرآن الكريم والكتابة وبعض الحساب**(1)**. وغالبا ما تقام هذه الكتاتيب بالقرب من المساجد أو في الزوايا ، واختلف عددها من ولاية إلى أخرى ، فهو مثلا يفوق الأربعمائة كتاب في العراق في أواخر العهد العثماني **(2)** ، وقد يصل إلى الضعف في بلاد

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

الشام (3). وساهمت هذه الكتاتيب في محو الأمية عن طريق تحفيظ الأطفال القرآن الكريم وتعليمهم اللغة العربية، قبل أن يواصلوا تعليمهم في الزوايا المرتبطة بالطرق الصوفية التي يتبعونها، وقد لاحظ الأوربيون الذين زاروا عواصم الولايات العربية مثل القاهرة ودمشق والجزائر كثرة الكتاتيب، وارتفاع نسبة القراءة بين سكانها(4). ولم يختلف التعليم عند الطوائف المسيحية كثيرا حيث كان يتم في الكنائس والأديرة باللغة السريانية في البداية ثم باللغة العربية تحت إشراف القساوسة (5). ونفس الأمر يمكننا قوله بالنسبة للطوائف الإسلامية الشيعية في لبنان، والزيدية في اليمن، والاثنا عشرية في العراق، والدروز في بلاد الشام والإباضية في بلاد المغرب (6).

ولم يختلف التعليم العالي عن التعليم الأولي كثيرا، فقد جرى في المساجد والزوايا والربط المنتشرة في الولايات العربية في المشرق والمغرب. ومن الطبيعي أن تختلف كل مؤسسة عن الأخرى في الحجم وعدد الطلاب والمعلمين ومناهج التعليم، لارتباط ذلك بالأوقاف المخصصة لكل مؤسسة (7). هذا واهتم السلاطين العثمانيون بتطوير المؤسسات التعليمية في عاصمة الخلافة استانبول منذ الفتح في سنة 1453م على يد محمد الثاني الملقب بالفاتح، هذا السلطان الذي أحب العلم والعلماء، فأنشأ مدرسة ألحقها بجامع أيا صوفيا، وستة عشر مدرسة ملحقة بجامعه المعروف بجامع الفاتح. ودرس الطلاب في مؤسسات استانبول القواعد، والنحو، والمنطق، وعلوم الدين، وفقه اللغة، وعلم البيان، والمعاني، والإنشاء، والهندسة والفلك، ويوصف الطالب الذي يتقن هذه العلوم بدانشمند أي الحاصل على المعرفة، ما يؤهله ليصبح عضوا في هيئة العلماء (8).

وحذا بقية السلاطين العثمانيين حذو السلطان محمد الفاتح، حيث بنى سليمان القانوني جامع السليمانية وألحق به عدة مدارس، وأدخل تعليم الطب في التعليم العثماني، وهذا إلى غاية منتصف القرن التاسع عشر حيث أدخل عليه نمطا من التعليم الأوروبي فيما عرف بالإصلاحات أو التنظيمات الخيرية (9). ولم تحاول الدولة العثمانية إخضاع المؤسسات التعليمية في الولايات العربية، بل تركتها محافظة على تقاليدها، بحيث كان في عاصمة كل ولاية مسجدها الجامع، مثل الجامع الأموي في دمشق وحلب، والأزهر في القاهرة، والمسجد الأقصى في القدس، والحرمين المكي والمدني، والزيتونة في تونس والجامع الكبير في الجزائر. وساهمت في إنشاء مؤسسات جديدة وترميم ما تخرب منها في الولايات المشرقية والمغربية (10).

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

2-المؤسسات التعليمية في بلاد العراق والشام :

حافظ العثمانيون في العراق على الجوامع والمساجد التي بنيت قبلهم، ثم ركزوا جهودهم خلال مختلف عهود الولاة على بناء مساجد جديدة التي ألحقوا بها عدة مدارس، ناهيك عن إصلاح وترميم القديم منها. وقدر عدد المدارس ودور العلم السابقة للحكم العثماني بحوالي 133مؤسسة في بغداد، والموصل، والبصرة، ومنها المدرسة المستنصرية والمرجانية **(11)**. وقامت الدولة العثمانية بترميم وتشييد جامع أبي حنيفة النعمان في بغداد خلال عهد سليمان القانوني، كما أعادت بناء مسجد الإمام المتصوف عبد القادر الجيلاني الذي نسبت له الطريقة الصوفية القادرية، والتي انتشرت عبر مختلف أصقاع العالم. كما قام الولاة العثمانيون الذين تداولوا على حكم العراق ببناء العديد من المدارس والجوامع والمساجد، والتي نذكر منها مسجد الكاظمية ، والمرادية في بغداد في سنة 1570م، وجامع الصاغة الذي ألحقت به مدرسة عمرت إلى سنة 1699م، وأضيف إلى ذلك جامع التكية المولوية المعروف حاليا بجامع آصافية، وجامع خسن باشا المسمى جامع الوزير **(12)**.

وعلى إثر استرداد العراق من الصفويين في سنة 1638م، واصل العثمانيون بناء دور العلم والجوامع والمساجد، وهكذا أنشأذا جامع القمرية في سنة 1644م، وجامع الفضل، وجامع الشيخ معروف في سنة 1674م، وجامع القدوري، وأعيد إصلاح جامع أبي حنيفة النعمان في سنة 1678م الذي زود بأوقاف جديدة، إلى جانب جوامع أخرى مثل جامع سيد سلطان علي، وجامع سراي في سنة 1681م، وشيد جامع بشناق الذي خصصت له أوقاف للتدريس فيه. كما اهتم العثمانيون بمدرسة السليمانية وجوامع القبلانية والفضل، ثم بنوا جامع الأحمدية في شنة 1795م، وشيد الوالي داود باشا في سنة 1818م ثلاثة جوامع منها جامع حيدر خانة وثلاثة مدارس **(13)** . ونشير إلى أن المدارس والجوامع قد انتشرت في مختلف مدن العراق، خاصة في الموصل، والبصرة حتى ولو كان التركيز على بغداد **(14)**.

ولم يختلف الوضع كثيرا في بلاد الشام، حيث قام السلطان العثماني سليم الأول ببناء جامع محي الدين بن عربي في دمشق، والذي يعرف بالمدرسة السليمية، كما أقام سليمان القانوني جامعه الكبير وأوقف التدريس على المفتي الحنفي وعين له محدثين وفقهاء **(15)**. وقام القاضي محمد جلبي بإعادة إصلاح المدرسة القليجية بدمشق في سنة 1556م، وذلك على إثر احتراقها أثناء الحرب ضد القائد المغولي تيمورلنك **(16)** .ومما تجدر الإشارة إليه أن العثمانيين المنشغلين بالفتوحات العسكرية، وتوطيد الحكم في الولايات العربية التي أخضعوها، لم

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

يغفلوا الجانب الإسلامي والتعليمي، فبنى ولاتهم عدة جوامع ومدارس ومساجد في دمشق مثل مسجد عيسى باشا خلال القرن السادس عشر، وجامع المرادية في سنة 1568م، وجامع الدرويشية بأوقافه في سنة 1572م، وعين على رأسه القاضي الشافعي إسماعيل النابلسي، وجامع السنانية خلال فترة حكم الوالي سنان باشا بين سنتي 1586 و 1588م، وبنى نفس الوالي جوامع القطيفة، وسعسع وعيون التجار. وأمر الوزير الأعظم سياغوش باشا الوالي حسن باشا ببناء المسجد المعروف بالسياغوشية قرب داره داخل باب الجابية. واهتم الولاة أيضا بتشييد الزوايا والخوانق التي أوقفوا لها أوقافا ضخمة، وضمن هذا السياق شيّد الوالي أحمد باشا زاوية الطريقة الخلوتية بدمشق في سنة 1635م. وخلال القرن الثامن عشر أنشأ العثمانيون مدارس آل العظم مثل مدرسة إسماعيل باشا العظم في سنة 1728م، ومدرسة سليمان باشا العظم في سنة 1738م، وأنشأ أهل الشام أيضا المدرسة المرادية، والنقشبندية البرانية **(17)** .

وأولى العثمانيون نفس الأهمية للمدن الشامية الأخرى كما هو الشأن في مدينة حلب التي استمرت بها المدارس والمساجد في التعليم، ودعمت بمساجد ومدارس جديدة مثل المدرسة الخسروية في سنة 1531م، وجامع بهرام باشا في سنة 1588م، وتم تجديد الجامع الأموي في سنة 1588م، وأنشئت مدارس أخرى مثل المدرسة الأحمدية في سنة 1753م، وقبلها المدرسة العثمانية **(18)** . وتوصف مدينة القدس بالمدينة الزاخرة، نظرا لكثرة مدارسها ومساجدها قبل العهد العثماني، إضافة إلى الحلقات التعليمية التي كانت تعقد في المسجد الأقصى، ونفس الأمر يمكننا ملاحظته بخصوص مدن الشام الأخرى مثل طرابلس الشام، وإدلب، وبيروت، وصيدا، وصفد، وعكا، ويافا، وغزة والخليل، إلى جانب نابلس التي كانت تشكل مركزا للمذهب الحنبلي، وكذا مدن حماة، واللاذقية، وأنطاكية، ومنبج وبعلبك **(19)** . وامتد التعليم خلال العهد العثماني إلى بقية الولايات العثمانية الأخرى مثل منطقة الحجاز واليمن.

3-التعليم في بلاد الحجاز واليمن:

تمثل أرض الحجاز قبلة المسلمين عبر العالم، ذلك أنها تحتوي على الحرمين المكي والمدني، اللذين أغدق عليهما سلاطين آل عثمان الكثير من الأوقاف حتى قبل إلحاق هذه الأرض المقدسة بالدولة العثمانية، ويبدو ذلك جليا من خلال الأموال المرسلة إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة خلال موسم الحج **(20)** .فقد أمر السلطان سليمان القانوني ببناء المدارس السلطانية في جنوب مكة المكرمة، وبلغ عددها أربع مدارس، عيّن على رأسها أئمة يمثلون المذاهب

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

الإسلامية السنية الأربعة، وأدارا للحديث للحنابلة. وسار السلاطين العثمانيون مراد الثالث، ومحمد الثالث، ومحمود الثاني وعبد المجيد على طريق سليمان القانوني فأنشأوا مدارس في المدينة المنورة، أما في جدة فأنشأ قره مصطفى باشا ما بين 1676 و1683م جامعا لتدريس العلوم الشرعية وأداء الفروض الإسلامية **(21)**.

وعلى الرغم من عدم تعمير الدولة العثمانية طويلا في اليمن ، إلاّ أن الولاة العثمانيين بادروا إلى تأسيس عدد كبير من الجوامع والمدارس لتدريس المذهب الحنفي كما هو الحال في صنعاء وزبيد **(22)**. وقام الوالي اسكندر بن سولي المعروف باسكندرموز بتأسيس المدرسة الإسكندرية، وأسس كمال بك المدرسة الكمالية في زبيد. وبنى مصطفى باشا النشار الذي حكم اليمن فترتين تاريخيتين مدرسة تحمل اسمه في صنعاء ظلت قائمة بعد وفاته، ومدرسة في مدينة تعز في سنة 1555م. أما مراد باشا فأنشأ المدرسة العادلية في سنة 1576م بصنعاء ولا تزال قائمة حتى اليوم **(23)**.وبعد أن أصبح الوزير حسن باشا حاكما على اليمن بين 1580 و 1605م، أقام عدة مساجد في مدينة تعز، ونسبت المدرسة البكيرية إلى بكير بك مولى هذا الوالي، الذي حزن عليه عند وفاته حزنا كبيرا فسمى المدرسة باسمه، هذه الأخيرة التي أمر السلطان عبد الحميد الثاني بتعميرها **(24)** . ونلاحظ من خلال بناء المدارس والجوامع في أرض الحجاز واليمن الاهتمام الذي أولته الدولة العثمانية للتعليم ردا للجهل والأمية، وسعيا إلى التمكين للعلم والثقافة الإسلامية.

4- مساهمة العثمانيين في التعليم بولاية مصر:

على الرغم من كثرة المساجد والمدارس والزوايا في ولاية مصر، إلاّ أن العثمانيين ساهموا بقسط وافر في إنشاء مختلف هيئات التعليم في القاهرة والمدن المصرية الأخرى. ويعد خير بك أول وال على مصر بنى مدرسة في سنة 1520م عرفت باسم جامع خير بك. وسار الوالي سليمان باشا الخادم على نهجه، فبنى جامع بولاق وجامع سيدي سارية بقلعة الجبل، والتكية السليمانية بعد نهاية ولايته الثانية في سنة 1538م. وخلال الفترة الممتدة من 1533 إلى 1751م، قام الولاة العثمانيون ببناء مدارس وجوامع كثيرة نذكر منها المدرسة الداوودية، وجامع محمود باشا، وجوامع بولاق والإسكندرية، وجامع الملكة صفية والمدرسة الإسماعيلية. وأنشأ السلطان محمود باشا في سنة 1751م سبيلا وتكية على نمط مدارس وجوامع استانبول **(25)**.

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

وتجدر الإشارة إلى أن العثمانيين لم يغفلوا ترميم عدة جوامع ومدارس، كان المصريون قد شيدوها قبل خضوعهم للحكم العثماني مثل جامع السلطان حسن في سنة 1671م، وجامع الفاكهاني الذي بناه الفاطميون في عام 1148م، كما تم توسيع الجامع الأزهر **(26)**، ناهيك عن ترميم وتعمير زوايا الطرق الصوفية ومقاماتها مثل مقام المتصوف أحمد البدوي في مدينة طنطا. واهتم العثمانيون أيضا بتعليم الأطفال الصغار، وركزوا على الفقراء والأيتام، وذلك بإقامة الكتاتيب التي سميت بالمكاتب، والتي منها كتاب الوالي خسرو باشا الذي حكم مصر ما بين 1535 و 1535م **(26)**.

ولا يكتمل الحديث عن التعليم في مصر ومؤسساته دون الكلام عن جامع الأزهر، الذي يستقطب علماء وطلابا من مصر وسائر البلاد الإسلامية. وخصصت مشيخة الأزهر خمسة وعشرين رواقا للوافدين من خارج ولاية مصر. وساهمت الدولة العثمانية ممثلة في ولاتها وأمرائها، وأثرياء مصرفي تقديم الهبات النقدية لهذا الصرح الإسلامي، والذي لم يشاركها فيه سوى الحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة. واعتبرت الجوامع والمدارس التي شيدت في القاهرة تابعة لجامع الأزهر، رغم استقلاليتها في الأوقاف، ومما يدلل على ذلك تعيين شيخ الأزهر لمدرسين وعلماء على رأس هذه المؤسسات التعليمية. ولم يقتصر التعليم غلى مدينة القاهرة فحسب، بل شمل المدن المصرية الأخرى، إذ وصلإلى حوالي عشرون مدينة لها مساجدها وجوامعها وعلماؤها، نذكر منها مدن رشيد، ودمياط، ودسوق، والمحلة، والمنصورة وطنطا في دلتا نهر النيل، وطهطا في صعيد مصر ومدينة الإسكندرية **(28)**. ولم تختلف سياسة التعليم العثمانية في غربي البحر الأبيض المتوسط، حيث حافظ العثمانيون على المؤسسات القائمة في طرابلس الغرب وتونس والجزائر، وأنشأوا مدارس وجوامع جديدة دعما للتعليم الديني الإسلامي في هذه المنطقة.

5- **المؤسسات التعليمية في ولايتي طرابلس الغرب وتونس:**

يمكننا التمييز بين مرحلتين اثنتين فيما يتعلق بولاية طرابلس العثمانية، تشمل المرحلة الأولى فترة ما قبل الأسرة القرمانلية، وتمثل المرحلة الثانية فترة حكم القرمانليين. فخلال المرحلة الأولى بني مسجد الناقة في حوالي سنة 1609م، ثم جامع طرغد، وجامع غورجي وجامع حمودة. أما أثناء حكم الوالي عثمان باشا ما بين 1649 و1672م، فقد أنشئت مدرسة وخصصت لها أوقاف كبيرة **(29)**. وتميز حكم أحمد القرمنلي بداية من سنة 1711م ببناء مسجد ومدرسة حملتا اسمه، وأسس مصطفى خوجة مستشار علي باشا قرمنلي فيما بين

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

1754 و 1793م، وكان محبا للعلم والعلماء وناسخا مدرسة وجامعا في سنة 1769م وألحق بها مكتبة كبيرة ومنظمة تنظيما دقيقا **(30)**.

ويذكر لنا الرحالة الجزائري الحسين الورثلاني قيام القائد عمورة ببناء مدرسة عظيمة في مدينة جنزور على بعد عشرين كيلومتر غربي مدينة طرابلس ، كما أقام بها مسجدا وخصص أوقافا ذات قيمة للمؤسستين التعليميتين **(31)**.واهتم العثمانيون أيضا بترميم الزوايا مثل زاوية علي بن عبد الصادق على بعد مائة وعشرين كيلومتر شرقي طرابلس. كما نشطت الحركة التعليمية في مدن بنغازي، وواحة فزان، وزليطن التي اشتهرت بالمعهد الأسمري المنسوب إلى الشيخ الصوفي عبد السلام الأسمر، وكذلك الأمر في مصراطة والزاوية، أما الجبل الغربي فاشتهر بالمدارس والزوايا الإباضية **(32)**.

هذا واجتهد العثمانيون مند تحرير تونس من أيدي الإسبان في سنة 1574م في إعادة الحياة إلى المدارس المنسوبة إلى الحفصيين مثل المدرسة الشماعية، ومدرسة عنق الجبل ومدارس التوفيقية، والعصفورية ، والمغربية والمنتصرية وغيرها من المدارس الزاخرة خلال عهد الحفصيين. وسعى العثمانيون من خلال بناء المدارس والجوامع الجديدة إلى التمكين للمذهب الحنفي الذي يمثل المذهب الرسمي للدولة العثمانية، كما هو الحال عند بناء المدرسة اليوسفية في سنة 1622م من طرف الداي يوسف بالقرب من جامع الزيتونة معقل المذهب المالكي **(33)** .

تميز الحكم العثماني في تونس بفترتين تاريخيتين، حكمت الأسرة المرادية خلال الفترة الأولى ، وسادت الأسرة الحسينية الفترة الثانية. ويعتبر الباي مراد مؤسس الأسرة الأولى، حيث قام ابنه حمودة باشا المحب للعلم والعلماء بتأسيس عدة مدارس ومساجد وزوايا، مثل الجامع المحاذي لقبر أحمد بن عروس صاحب الطريقة الصوفية، وزاوية الصحابي أبي زمعة البلوي في القيروان **(34)** ، وخصص لهذه المؤسسات أوقافا كثيرة. واستمر الباي مراد الثاني بن حمودة باشا في بناء المدارس والجوامع، وتجلى ذلك في جوامع مدن قابس ، وباجة، والمدرسة المرادية المالكية في تونس ومدرسة جربة في حوالي 1674- 1675م، هذه الأخيرة التي جعل منها العالم الجمني مدرسة مالكية صرفة، تخرج الطلبة والعلماء. وقام الباي محمد بن مراد الثاني ببناء مدارس وجوامع في تونس ، والقيروان، وقفصة، وقابس ، وباجة، والكاف، وتوزر ونفطة **(35)** .

ولم تختلف فترة حكم الأسرة الحسينية عن سابقتها والتي بدأت في سنة 1117هـ / 1705م وامتدت إلى غاية منتصف القرن العشرين ، حيث أعاد الحسين بن علي مؤسس هذه الأسرة

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

الحياة العلمية والفكرية إلى زوايا ومدارس القيروان ، ثم بنى الجديد منها في صفاقس ونفطة، وأصبحت زاوية سوسة مدرسة قائمة بذاتها. ونفس الأمر يمكننا قوله عن مدارس توزر، وقفصة، وباجة، وقابس وجربة. أما في العاصمة تونس فأنشأ المدرستين الحسينيتين الصغرى والكبرى، والجامع الجديد في سوق البلاط وجامع باردو **(36)** . واهتم اهتماما كبيرا بجامع الزيتونة حيث زوده بعدد كبير من العلماء ونقل عددهم من ثمانية إلى ثلاثين عالما ، وخصهم بمرتبات منتظمة ، وشجع الطلبة بمنح ذات قيمة عالية، ناهيك عن الأوقاف ومكتبات المدارس والجوامع ، ولم يتأتى ذلك لولا حبه للعلم ومجالسته للعلماء **(37)**.

واستمر بايات تونس منذ علي باشا فيما بين 1740 و 1756م إلى حمودة باشا الذي حكم تونس ما بين 1782 و 1814م ، في بناء المؤسسات التعليمية المختلفة مثل المدارس المالكية والحنفية في العاصمة تونس ، وقام الباي علي بن الحسين فيما بين 1759 و 1782م ببناء المدرسة الحسينية الكبرى تخليدا لذكرى والده، ودعمها باوقاف ك معتبرة ومدرسين أكفاء ، وعيّن على رأسها عالما مالكيا، يؤطر ثلاثين طالبا مالكيا وثمانية أحناف. وقام الوزير يوسف صاحب الطابع في عهد حمودة باشا ببناء الكتاتيب والمدارس ، وأنشأ جامعا كبيرا اشتهر بحلقات العلم التي كانت تضاهي مثيلاتها في جامع الزيتونة **(38)** . وهكذا تميزت الحياة التعليمية في ولايتي طرابلس وتونس بحيوية علمية، وساد الإشعاع الفكري فترة طويلة، امتد إلى ولاية الجزائر.

6- الحياة الفكرية والتعليمية في ولاية الجزائر:

شهدت ولاية الجزائر العثمانية أو إيّالة الجزائر نشاطا فكريا وتعليميا مزدهرا، على عكس ما هو شائع بين الباحثين والمؤرخين من أن العثمانيين لم يولوا هذا الميدان أهمية، إذ لم يمر عهد من عهود الحكم العثماني في الجزائر إلاّ وبنيت المساجد والجوامع والكتاتيب والزوايا، وأوقفت لها أوقاف ذات قيمة كبيرة.وضمن هذا السياق أنشأ الحكام مثل ميزمورطو، وخضر باشا وعبدي باشا، وعلي بتشين وحسين باشا مساجد ضخمة، وجوامع للأحناف في دار السلطان وهي مدينة الجزائر إلى جانب بقية مدن الولاية، والتي تشرف عليها مؤسسة أوقاف تسمى سبل الخيرات الحنفية، التي تضم أوقاف الجامع الحنفي في الجزائر الذي يمثل المقر الرئيس للمفتي الحنفي. وتجدر الإشارة إلى وجود جوامع سابقة للعهد العثماني مثل الجامع الكبير، وجامع القشاش الذي ألحقت به مدرسة. كما أنشأ المفتي المالكي سعيد قدورة مدرسة ملحقة بالجامع

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

الكبير، وسكنا للعلماء والطلبة والغرباء عن المدينة، وشهدت هذه المدرسة في إحدى الفترات التاريخية اثنتي عشرة حلقة من حلقات الدروس يشرف عليها تسعة عشر مدرسا **(39)**.

وامتد إنشاء المدارس والجوامع إلى بقية مدن ولاية الجزائر على يد بايات البايلكات الأخرى مثل بايلك الشرق، وبايلك الغرب وبايلك التيطري. وهكذا شيّد الباي حسن بوحنك باي بايلك الشرق الجامع الأخضر في قسنطينة في سنة 1743م، وأتبعه صالح باي في سنة 1792م بتأسيس الجامع الجديد في عنابة، والمدرسة الكتانية في قسنطينة، وجامع سيدي كتاني في سنة 1775م، كما قام الباي حسين بوكمية ببناء جامع سوق الغزل في عاصمة البايلك في سنة 1730م. أما في سنة 1757م فقد قام الباي أحمد القلي بإنشاء جامع في مدينة القل على ساحل البحر الأبيض المتوسط، وأسس مصطفى باشا في سنة 1798م الجامع الكبير في مدينة بجاية الساحلية أيضا. وأسس آخر بايات التيطري جامع سيدي المزاري في مدينة المدية. أما الباي محمد الكبير باي بايلك الغرب وفاتح مدينة وهران العاصمة ومحررها من الإسبان في سنة 1792م، فقد بنى المدرسة المحمدية في مدينة معسكر قرب جامعه، وأعاد لمدرسة الجامع الكبير ومدرسة أولاد الإمام في مدينة تلمسان التي تقع غربي وهران عاصمة البايلك أوقافهما وقام بتجديدهما **(40)**.

وعرفت مدينة الجزائر قيام المهاجرين الأندلسيين بتأسيس مدرسة الأندلسيين ذات التعليم الراقي، ومدرسة شيخ البلاد التي أسسها كاتب قصر الباشا المسمى محمد خوجة خلال القرن الثامن عشر، واحتوت على مساكن للطلبة والعلماء الماهرين ومسجدا للصلاة **(41)**. ويشير الحسين الورثلاني في رحلته إلى مدرسة الخنقة التي أسسها أحمد بن ناصر في سنة 1757م، والتي درست بها علوم النحو، والفقه والحديث، وقصدها طلاب العلم من مختلف المناطق والمدن كقسنطينة وعنابة **(42)**. ومن المدارس الراقية أيضا مدرسة مازونة في بايلك الغرب التي استمدت نظامها التعليمي من تلمسان والأندلس، وتميزت بتدريس علوم مختلفة مثل افقه، والحديث وعلم الكلام، وقصدها طلاب من هذا الإقليم ومدنه الزاهرة كتلمسان وندرومة ومدينة تنس أيضا، وتخرج منها علماء مشهورون مثل أبي الراس المعسكري. ولا يمكننا إغفال دور الزوايا، والخوانق والربط التي أنشاها العثمانيون، أو التي بنيت قبل مجيئهم، والتي قامت بدور فعال في التعليم والتدريس خاصة ما تعلق بالعلوم الشرعية الإسلامية المختلفة **(43)** .

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

إنّ الدولة العثمانية كدولة خلافة إسلامية لم تحرم أحدا من حقه في التعليم كما يشاع، بل كان ذلك خاضعا لأوضاع الدولة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، أي أن هناك مراحل قوة ومراحل ضعف أسهمت في تطور التعليم من عدمه، إلى جانب الرقعة الجغرافية الشاسعة للدولة والتي لا نشك أنها شكلت عائقا أمام التسيير الأمثل للقطاعات الحيوية للدولة ومنها قطاع التعليم. وعلى الرغم من ذلك نخلص إلى أن الدولة العثمانية اهتمت بالعلماء والفقهاء ، ومما ساعد في انتشار التعليم ، الذي قفزت أنظمته قفزات رائدة على يد محمد الفاتح والسلاطين الآخرين ، تنافس الوزراء على إنشاء المدارس في استانبول ومختلف الولايات العربية التابعة للدولة. ونستنتج من كثرة بناء الجوامع، والمساجد والمدارس والزوايا، تشبث الدولة بالروح الإسلامية التي صبغت الحياة الفكرية والثقافية في مركز الخلافة والولايات العربية في المشرق والمغرب. ومما نلاحظه أيضا الاعتماد على الأوقاف التي شكلت العمود الفقري للمؤسسات التعليمية المختلفة، فلولاها ما كان في مقدور الدولة تسيير هذه المؤسسات والإشراف على تخريج العلماء وتعيينهم على رأس هيئات الدولة مثل هيئة القضاء والإفتاء. ويدرك الدارس لسياسة التعليم ومؤسساته أثناء الحكم العثماني اختلاط وظيفة الجامع والزاوية والمدرسة، بحيث قدمت جميعها خدمة تعليمية في المدن والأرياف، من أجل المحافظة على الشخصية الإسلامية ومحاربة الأمية ونشر العلم.

الهوامش:

1- إكمال الدين إحسان أوغلو، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، نقله إلى العربية صالح السعداوي ، المجلد الثاني ، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية ، استانبول ،1999، ص..309

2- عبد الرزاق الهلالي ، تاريخ التعليم في العراق في العهد العثماني (1638- 1817) ، بغداد ، 1959 ، ص..62

3- عبد الجبار الحاج عثمان، التعليم الرسمي والتقليدي والأهلي عند المسلمين في بلاد الشام ما بين 1878 - 1920،أطروحة ماجستير في التاريخ ، جامعة دمشق ، 1980 ، ص.33.-35.

4- إكمال الدين إحسان أوغلو، المرجع السابق ، ص. 310 .

5- شاكر خوري ، مجمع المسّرات ، مطبعة الاجتهاد ، بيروت ، 1908 ، ص..5

6- إكمال الدين إحسان أوغلو، المرجع السابق ، ص..311

7- نفسه ، ص.311.

Beirut, 1968,pp.104-105. 8-Creasy(E.S.) ,History of the Ottoman Turks,

9- إكمال الدين إحسان أوغلو، المرجع السابق ، ص..312

10- نفسه ، ص.313.-314.

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

11- عايف حبيب العاني ، التعليم في العراق من أواخر القرن التاسع عشر إلى العقود الأولى من القرن العشرين ، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية ، عمّان ، ج 4 ، 1990 ، ص..1332

12 - إكمال الدين إحسان أوغلو، المرجع السابق ، ص.314-315 .

13- Encyclopédie Islamique, volume. I, p.931.

14- فاضل مهدي بيات ، التعليم في العراق في العهد العثماني ، المجلة التاريخية المغربية ، العدد 57-58 ن جويلية 1990 ، ص. 109-143 ، 119-120.

15- ابن طولون ، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ، 1962 ، ج 2 ، ص.68- 115 ؛ نجم الدين الغزّي ، الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة ، تحقيق جبرائيل جبور ، بيروت ، 1959-1945 ، ج 1 ، ص..210

16- ابن بدران ، منادمة الأطلال ومسامرة الخيال ، بيروت ، د.ت.، ص..196

17- إكمال الدين إحسان أوغلو، المرجع السابق ، ص.317-.318

18- المحبي محمد الأمين ، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ، القاهرة ، 1868، ص.50- .114

19- إكمال الدين إحسان أوغلو، المرجع السابق ، ص.319 .

20- ليلى الصباغ ، من أعلام الفكر العربي في العصر العثماني الأول – المحبي وكتابه خلاصة الأثر – دمشق ، 1986 ، ص.218- 221 .

21- إكمال الدين إحسان أوغلو، المرجع السابق ، ص.319 .

22- إسماعيل الأكوع ، المدارس الإسلامية في اليمن ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1984 ، ص.83 .

23- نفسه ، ص.394- 398 .

24- إكمال الدين إحسان أوغلو، المرجع السابق ، ص.321 .

25- نفسه ، ص.321- .322

26- Encyclopédie Islamique, volume. XIV.,pp.456-457 ; الجبرتي ، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، دار الجيل، بيروت ، د.ت.، ج 1، ص.250، 491-492.

27- إكمال الدين إحسان أوغلو، المرجع السابق ، ص.323 .

28- Encyclopédie Islamique, volume. I.,pp.837-844 ; Gibb(H.A.R.) , Bowen(H), Islamic society and the west, Oxford University Press, 1951-1957, pp.154-156 .

29- إكمال الدين إحسان أوغلو، المرجع السابق ، ص.324 .

30- عمار جحيدر ، مصادر دراسة الحياة الفكرية في العهد القرمانلي ، (1123-1251هـ /1711- 1835م) ، المجلة التاريخية المغربية، العدد 59-60 ، تونس ن1990 ، ص.602 ، 644-656 .

31- الحسين الورثلاني ، نزهة الأنظار في علم التاريخ والأخبار ، بيروت ، 1974 ، ص. 131 ، 638-639 .

32- إكمال الدين إحسان أوغلو، المرجع السابق ، ص.325 .

33- الطاهر المعموري ، مقدمة كتاب حسين خوجة : ذيل بشائر أهل الإيمان ، ليبيا – تونس ، د. ت. ، ص.47-48.

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

34- ابن أبي دينار القيرواني ، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ، دار المسيرة ، بيروت ، د.ت. ، ص. 21 ؛ حسين خوجة ، ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان ، تحقيق الطاهر المعموري ، ليبيا – تونس ، د.ت. ، ص. 95 .

35- Abdesselem (Ahmed),Les historiens Tunisiens des XIIe, XIIIe, XIXe siècles , Paris, Klincsieck, S.d., pp.41-42 ;

حسين خوجة ، المصدر السابق ، ص.98، 130 ، 103، 142 .

36- Abdesselem (Ahmed),op.cit., pp.61,160.

37- Ibid., pp.61,63-64,69 ;

محمد الحبيب الهيلة ، مقدمة كتاب محمد بن محمد الأندلسي الوزير السراج: الحلل السندسية في الأخبار التونسية ، بيروت ، 1984 ،ج1 ، ص.60- 61 .

38- ابن أبي الضياف ، أحمد ، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وأهل الأمان ، تونس ، 1963-1964 ، ج3 ، ص.59، 122-124 ، وج7 ، ص.91، 94-95 ؛ عثمان الكعاك ، محاضرات في مراكز الثقافة بالمغرب العربي من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر، جامعة الدول العربية ، القاهرة، المطبعة الكمالية، 1958 ، ص.105 .

39- أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ،1500- 1830 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، 1998 ، ص.233-234 ، 237 ، 243 .

40- نفسه ، ص .229 -230 ، 237 ، 248-249 .

41- نفسه ، ص. 240 .

42- الحسين الورثلاني ، المصدر السابق ، ص. 117 .

43- أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، ص. 250 ، 269 ، 279